﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦﴾ [التّوبة: 116]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ تمامِ القُدرةِ بعد ذِكْـرِ تمامِ العلْمِ

لَمَّا دعتِ الآياتُ السّابقةُ إلى قطْعِ علائقِ المودّةِ والموالاةِ بين المؤمنين ومَنْ لهُمْ بهم صِلةٌ منَ المشركين، جاءتْ هذه الآيةُ لتأخُذَ بنواصي المؤمنين باللّه إليه وحْدَه، وتُقيمَ وجوهَهُم إليه لا إلى غيرِه، لأنّه يملكُ السّماواتِ والأرضَ ويُحيي ويُميتُ، فهو الوليُّ والنّاصرُ لهم[1].

وممّا يُذكرُ في المناسبةِ أنه لَمَّا ذكَرَ تعالى في ختامِ الآيةِ السّابقةِ عِلْمَهُ بكُلِّ شَيءٍ، فهو يعلَمُ ما يَصلُحُ لكُلِّ أحَدٍ، وما هُيِّئَ له في سابقِ الأزَلِ، ذكَرَ هنا ما يُدّلِّلُ على القُدرةِ الباهرةِ مِن أنَّه له ملكُ السَّمَاواتِ والأرضِ، فيتصَرَّفُ في عبادِه بما شاء، ثمَّ ذكَرَ مِن أعظَمِ تَصَرُّفاتِه الإحياءَ والإماتةَ، أي: الإيجادَ والإعدامَ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيّٖ﴾: الوليّ زنةُ (فَعِيل) صيغةُ مبالغةٍ، جذرُه اللُّغويُّ من (و ل ي)، وهو بياءيْنِ (وليي) الأولَى ياءُ الوزنِ، والثّانيةُ ياءُ الأصلِ، ثمّ أُدغمَتا فصارَ (وليّ)، والأصلُ في معناهُ دلالتُه على القُربِ[3]، ومصدرُه الولاءُ من "واليتُ بَين الشّيئَيْنِ موالاةً وولاءً، والوليّ: خلافُ العدوِّ ويُطلَق على النَّاصر والمُعين"[4]، وهو المرادُ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿نَصِيرٖ﴾: وصفٌ على صيغةِ (فَعِيل) بمعنَى فاعِلٌ (ناصِر)،

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 4/908.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/516.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) ابن دُرَيد، جمهرة اللُّغة: (ولي).

وهو من (ن ص ر) فعلُه نصرَ ينصرُ نصرًا، ومعناهُ المجرَّدُ: "مجارِي الماءِ: (مَسايِلُه) إلى الأوْديةِ، والنّاصرُ يجيءُ من مكانٍ بعيدٍ" والعلاقةُ أنّ "الإمدادَ بما فيهِ زيادةٌ مناسبةٌ وقوةٌ: كما تمدُّ النواصرُ الأوديةَ والتّلاعَ بالماءِ"[1]، ومن هذا الملحظِ جاءتِ النُّصرةُ بمعنَى: إعانةِ المظلومِ، ومَن به حاجةٌ لذلكَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللـه وحـدَه مالكُ السَّماواتِ والأرضِ وهـو وحـدَه النَّاصرُ لأَوْليائِه

بيّنتْ هذه الآيةُ أنَّ اللّه تعالى وحدَه له ملكُ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، لا شريكَ له في الخلْقِ والتَّدبيرِ والعبادةِ والتَّشريعِ، وهو المُتَصَرِّفُ فيهما بالإحياءِ والإماتةِ، يُحْيِي مَنْ شاء إحياءَه، ويُميت مَنْ شاء إماتتَه، وليس لكم سوى اللّه من ولِيٍّ يتولَّى أمرَكم، ولا نصيرٍ ينصرُكم ويُدافِعُ عنكم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ فصْلِ الآية عن سابِقتِها:

ملكُ الله تعالى لـلـسّـمـواتِ والأرضِ يَقتضِي علْمَه بكلِّ شيء

فُصِلتْ هذه الآيةُ عن سابقتِها، لأنّها تذييلٌ في قوّةِ التَّأكيدِ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، ولذلك فصلَ بدون عطْفٍ لكمالِ الاتّصال بينهما، لأنَّ ثُبوتَ مُلكِ السَّماوات والأرض للّه تعالى يقتضِي أن يكونَ عليمًا بكلِّ شيءٍ، لأنَّ تَخَلُّفَ العلْمِ عنِ التَّعلُّقِ ببعضِ المُتملَّكاتِ يُفضِي إلى إضاعةِ شُؤونِها[3].

بلاغةُ التَّأكيدِ:

إثـبـاتُ صِـفـةِ الـعـلْـمِ وبـيـانُ سببِها

افتتاحُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ مع عدمِ الشَّكِّ في مضمُونِ الخبرِ، يُعَيِّنُ أنَّ (إنَّ) لمجرّدِ الاهتمامِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (نصر).
(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 281، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.

فتكونُ مُفيدةً معنَى التَّفريعِ بالفاءِ والتَّعليلِ[1]، والآيةُ الكريمةُ تُؤكِّدُ علْمَ اللهِ تعالى الّذي خُتمتْ به الآيةُ السَّابقةُ، فهذه الآيةُ السَّاميةُ الأخيرةُ، تُؤكّدُ علْمَ اللهِ تعالى الشَّاملَ، وتُبيِّنُ سببه بسُلطانِ اللهِ تعالى المطلَقِ، الّذي يُدَبِّرُ كلَّ شيءٍ فيه على مُقتضَى علْمِه وحكمتِه، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، وبيّنتْ أنَّ ملكَه لا يكونُ على الإنسانِ فقط، بل هو على السَّماواتِ بأبراجِها والأرضِ بطبقاتِها لا يخرجُ عن مُلكِه شيءٌ[2].

نُكتةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ:

بيانُ كمالِ التَّعظيمِ والجلالِ الدَّالِّ على كمَالِ المُلْكِ

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُظهِرًا اسمَ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، للدّلالةِ على أنّه المَلِكُ الأعظمُ المحيطُ بصفاتِ الكمالِ[3]، ولم يأْتِ به مُضمَرًا من بابِ التّعظيمِ وتربيةِ المهابةِ في نفوسِ خلْقِه[4]، ولأنَّ لفظَ الجلالة (اللّه) هو الاسمُ العلمُ الجامعُ لسَائرِ الصِّفاتِ، وهذا هو المناسبُ لسياقِ الآيةِ، فاللّه له كلُّ صفاتِ الجمالِ والكمالِ، فلا ينازعُه منازعٌ، ولا يتأتَّى ذلك إلّا في لفْظِ الجلالةِ[5].

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملة ﴿لَهُۥ﴾:

اختصاصُه سبحانه بالمُلْكِ الكاملِ دونَ سواه

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالَى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهو تقديمٌ جائزٌ عربيَّةً، وأصلُ النَّظم: (مُلكُ السّماواتِ والأرضِ لهُ) ولتقديمِه فائدتان بلاغيّتان، أمَّا الأولَى: فهي الاختصاصُ، أي: اختصاصُه بالمُلكِ دونَ سواه لا يُشاركُه في ذلك مُشاركٌ، ولا يُنازعُه مُنازعٌ يتصرّفُ في مُلكِه بما يشاءُ منَ التَّصرّفاتِ[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3463.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/34.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 5/104.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(6) القنوجي، فتح البيان: 3/189.

وأمَّا الثَّانيةُ فهيَ التَّشويقُ لما بعدَه، فإذا قرأَ القارئُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ﴾ تشوَّقَ السَّامعُ ليعرفَ ما لهُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿مُلْكُ﴾:

من لوازمِ ثُبوتِ المُلكِ كمالُ التّصرّف فيه

وصَفَ ربُّنا ﷻ نفسَه بأنَّ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليبيِّن جوازَ تَصرُّفاتِه في مملكتِه بما يشاءُ منَ الإضلالِ والهدايةِ والمغفرةِ والعذابِ وغيرِ ذلك[2]، فهو مالكُ المُلْكِ منَ العرشِ إلى الثَّرى، وفيه إعلامٌ بأنَّ التّصرّفَ المطلَقَ له في الضَّلالةِ والهدايةِ والحياةِ بالوَصْلَةِ، والموتِ بالفُرْقَةِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ﴾ بالضَّمّ:

مُلكُ اللهِ سلطانُه على الخلْقِ وتصرّفُه المطلَقُ في مخلوقاتِه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ(المُلك) دون (الملك)، لوجودِ فرقٍ بينهما، فالمُلك يرادُ به ملكُ السّلطانِ وسياسةُ الحُكم، أمّا (الملك) فالمرادُ إثباتُ الملكيّةِ، من قولِك: ملَكَ فلانٌ هذا الشّيء فهو يَملكُه ملكًا، وقد يكونُ الإنسانُ ملِكًا للشّيءِ ولا يملكُ التّصرّفَ فيه، أمّا المُلك فهو مالكٌ للتّصرّفِ فيه، لذلك لمّا كان المرادُ هنا إثباتَ سُلطانِه سُبحانه وتصريفَه لملكِه، جاء التَّعبيرُ بـ(المُلك) دون (الملك).

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميّةِ في الملكِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ﴾ دونَ الفعليّةِ:

بينَ صِفةِ الذّاتِ وصِفةِ الفعلِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّةِ في (المُلك)، للدّلالةِ على ثُبوتِه واستمرارِه فهو ﷻ مالكُ المُلك، فلا ينفكُّ عنه، لأنّه صِفةُ ذاتٍ، بخلافِ الإحيَاءِ والإماتةِ حيث قال: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فهو صِفةُ فعْلٍ، والفعلُ يُناسبُه التَّجدّدُ والحُدوثُ.

السّماواتُ والأرضُ أعظمُ المخلوقاتِ المحسوسةِ بما فيها منَ الآياتِ والبراهِينِ

سِرُّ تخصيصِ السّماواتِ والأرضِ بالذِّكرِ دونَ غيرِهما:

النّاظرُ في هذه الآيةِ القرآنيّةِ يجدُ تخصيصَ ملكِه سُبحانه

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/34.
(2) الجرجاني، درج الدرر: 1/801.
(3) البقلي، عرائس البيان: 2/54.

بالسّماوات والأرض مع أنّه يملكُ الدّنيا والآخرةَ جميعًا، لكنّه آثرَ تخصيصَهما بالذّكر هنا، لأنّهما أعظمُ المخلوقاتِ المحسوسةِ بما فيهما منَ الآياتِ والبراهينِ، وأيضًا، لأنّ المخلوقاتِ جميعًا بينَهما، فإمَّا أن تكونَ المخلوقاتُ في السّماوات أو تكونَ في الأرض، والملكيّةُ لهما ملكيّةٌ على ما فيهما.

بلاغةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

بيانُ كونِ السّماواتِ أجناسًا مختلفةً والأرضِ جنسًا واحدًا

جَمعَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، لأنَّها أجناسٌ مُختلفة، كلُّ سماءٍ من جنْسٍ غيرِ الأخرَى، وَوَحَّدَ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، لأنَّها كُلُّها تُرابٌ[1]، ولأنَّ الأرضَ عالَمٌ واحدٌ، والمعنى: أنَّ في خلْقِ السَّماوات جمعًا مع إفراد الأرض آياتٍ تُدلّلُ على مُلكِه للسّماواتِ والأرضِ.

سِرُّ عطْفِ الأرضِ على السّماوات:

عمومُ مُلك الله للسّماواتِ والأرضِ

جُعِلتِ الأرضُ معطوفةً علَى السَّماواتِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، لِيَتَسلَّطَ المُضاف عليهما، أي أنّ مُلكَ اللّه شاملٌ لكلِّ المخلوقاتِ في الأرضِ وفي السّماوات كلِّها، فهو المَلكُ الّذي لا يَخرجُ عن مُلكِه سُبحانَه شيءٌ قَلَّ أو كثُرَ، جلَّ أو حقُرَ[2].

سرُّ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

مَكانَةُ السَّماواتِ وعظَمتُها

قُدِّمَ ذِكْرُ السَّماواتِ على الأرضِ جريًا على عادةِ القرآنِ الكريم، فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذِكْرَ السَّماواتِ على الأرضِ في أكثرِ آياته، ولم يتأخَّرْ ذِكْرُها إلّا في القليلِ جدًا، وقُدِّمتْ أيضًا من باب تقديم الأعظمِ والأعلَى، فالشّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذِكْرُ الأعظمِ والأعلَى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يُوجبُ خلافَه، والتَّقديمُ للأهميّةِ والقداسةِ، فالسَّماء فيها العرشُ والكرسيُّ.

(1) النَّيسابوريُّ، التّفسير البسيط: 3/453، والبغويُّ، معالم التّنزيل: 1/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/77.

سِرُّ الإتيانِ بصِفةِ الإحياءِ والإماتةِ بعد المُلْك:

المـوتُ والحياةُ دلائـلُ الله على قُـدرتِـه وعلْمِه وكـمـالِ مُـلكِه لكلِّ شيءٍ

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بصِفةِ الإحياءِ والإماتةِ بعد المُلك، للتّدليلِ على قُدرته وعِلْمِه بما يُشاهَدُ مُتكرِّرًا من فعْلِه في الحيوانِ والنَّباتِ وغيرِ ذلك فقال: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ أيْ: بكلِّ معنى فهو الّذي أحياكُم وأحيا غيْرَكم الحياةَ الجسمانيَّةَ وخصّكُم أنتم بالحياةِ الإيمانيَّةِ[1]، فهو المُدبِّر لعبادِه بالإحياءِ والإماتةِ، وأنواعِ التَّدابيرِ الإلهيَّةِ.

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

بيانُ آثـارِ المُلْكِ ومَظاهِره

فُصِلَ قولُه سبحانه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ عن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، لأنّه أتَى بالأمرِ الّذى يظهرُ فيه أثرُ القدرةِ والمُلك، ولا يشاركُه فيه غيرُه، فقال: يُحْيِي وَيُمِيتُ[2]، فـ(يُحيي ويُميت) لتصويرِ معنَى المُلك في أتمِّ مظاهرِه المحسوسةِ للنَّاس المُسَلَّمِ بينَهم أنّ ذلك من تصرُّفِ الله تعالى لا يستطيعُ أحدٌ دفْعَ ذلك ولا تأخيرَه[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ أيُّها المؤمنون ألَّا تجزعُوا من عدوٍّ وإن كَثُرَ، ولا تهابُوا أحدًا، فإنَّ الموتَ المخوفَ والحياةَ المحبوبَة، هُما بيدِ الله ﷻ[4]، فالفصْلُ لكمال اتّصالها بما سبقَها، أو لأنّها وقعت استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ مقدّرٍ: ما مظاهرُ مُلكِه للسّماوات والأرض؟

دلالةُ حذْفِ مُتعلّقِ الإحياءِ والإماتةِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

كـلُّ المخلوقاتِ حياتُها وموتُها بيدِ الله، يَهبُها أو يَسلبُها

حُذفَ مُتعلّقُ الفعْلِ ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾، لإفادة العموم، ليشمَلَ كلَّ ما من شأنِه أن يحيا ويموت، فالإحياءُ: يكونُ بالخلْقِ والإيجادِ الظَّاهِرَيْن، ويكونُ الإحياءُ بالإيمان على سبيلِ الاستعارةِ التَّبعيّةِ، ومثلُه في الإماتةِ، ونظيرُه في هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/34.
(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 9/5543.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/48.
(4) الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 1/924.

فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122][1].

فيُحيي مَنْ شاء على الإيمان ويُميتُه عليه، ويُحيي مَنْ شاء على الكفر ويُميته عليه، لا اعتراض لأحدٍ عليه في حُكمه وعبيده[2]، لأنّه هو الّذي يهبُ الحياةَ الحيوانيَّةَ والحياةَ المعنويَّةَ الرُّوحيَّةَ بمحْض قُدرته ومشيئته ومُقتضَى سُنَنه في التَّكوين والهداية الفعليَّة، ويميتُ ما شاء منَ الأبدان بانقضاء آجالها المقدَّرة في علْمه، ومنَ الأنفُس بنُكوبها عن صراطِ هدايته[3].

نُكتةُ تقديمِ الإحياءِ على الإماتةِ: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾:

قدّمَ الإحياءَ على الإماتةِ في قولِه تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مع أنّه في مواضعَ أُخرى كان يقدّمُ الموتَ على الحياةِ كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: 2]، لأنَّ السّياقَ هنا اقتضَى ذلك، فالحياةُ هي الصِّفةُ الّتي يكونُ الموصوفُ بها بحيث يَصِحُّ أن يَعْلَمَ ويَقْدِرَ، والموتُ عبارةٌ عن عدمِ هذه الصِّفة[4]، وبهذا الاعتبار قدَّمَ الإيجادَ على الإعدام، ولتجلِّي المُلك والقُدرة في الإحياءِ قُدِّم على الإماتة، لأنَّ المرءَ قد يَقْتُلُ غيرَه ويدّعي أنَّه أماتَه، ولكنْ أنَّى له أن يُحْيِيَه.

تجلِّي المُلكِ والقُدْرةِ في الإيجادِ والإحياءِ أكثرَ منه في الإماتةِ والإعدامِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعْلِ المضارعِ في صِفةِ الإحياءِ والإماتةِ، للدَّلالةِ على تجدُّدِهما واستمْرارِهما في جنْسِ المخلوقاتِ الحيوانيَّة، بل وفي النّباتاتِ، وهذا أمرٌ مُشاهدٌ يُؤيّدُه الواقعُ، ففي كلِّ دقيقةٍ أو أقلّ يحدث ما لا يُحصَى من عملياتِ الإحياءِ والإماتةِ.

الدّلالةُ على التّجدّدِ الاستمراريِّ

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم: 4/247.
(2) الشّربيني، السراج المنير: 1/746.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 11/63.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/579.

دلالةُ الواوِ: ﴿وَمَا لَكُم﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم﴾ عاطفةٌ، عطفَتْ قولَه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ على ما سبَق منَ الآية، والغرَضُ من ذلك تأييدُ المسلمين بأنَّهم منصورُون في سائرِ الأحوال، لأنَّ اللّه وليُّهم فهو نصيرٌ لهم، ولإعلامِهم بأنَّهم لا يَخشَوْن الكفّار، لأنَّ الكافرينَ لا مولَى لهم، وذلك مُناسِبٌ لغرَضِ الكلامِ المتعلّقِ باستغفارِهم للمشركين بأنَّه لا يُفيدُهم[1]، وفيه إشارةٌ إلى تحريضِ اللّه تعالى لعبادِه المؤمنين على قتال المشركين والكافرين، وأن يثقُوا بنصْرِ اللّه مالكِ السَّماوات والأرض ولا يرهبُوا من أعدائِه، فإنَّه لا وليَّ لهم من دون اللّه ولا نصيرَ لهم سِواه[2].

اللّه مَولَى المؤمنين وناصِرُهم، والمشركُونَ لا مَولَى لهم ولا ناصِرَ

دَلالةُ كَافِ الخطابِ في: ﴿لَكُم﴾:

الخطابُ للمؤمنين، ومعناه: وما لكم أيُّها المؤمنون من وليٍّ يُواليكم وتُحبُّونه إلَّا اللّه تعالى، ولا نصيرَ يَنصرُكم سواه، فلا تُؤْثِروا عليه قَرَابةً أشركتْ باللّه وعصَتْ رسولَه الذي أرسلَه رحمةً للعالمين، فهو سُبحانه أَوْلى بخَلْقِه، يَهدِي مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ[3].

تَنبيهُ المؤمنين للوَلايةِ والنُّصرةِ الحَقَّةِ وأنَّها منَ اللّه تعالى

وفيه إشارةٌ إلى حقيقةٍ كونيّةٍ خالدةٍ، وهي مُلكُه سُبحانه للكونِ كلِّه وقَيوميّتُه عليه ونفيُ ذلك عن غيره.

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

دلّتْ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على تأكيدِ اختصاصِه سُبحانَه بوَلايةِ المؤمنين ونُصرتِهم دون سواه، لأنّه لمَّا كان الدّعاءُ والاستغفارُ للمُشركين من ذوي القُربى يُفهمُ منه معنَى النُّصرةِ، نهَى المؤمنين عن ذلك، وفيه تهديدٌ لمَنْ أقْدمَ على فعْلِ ذلك مُلاينةً لأعداءِ اللّه، طلبًا لمُوالاتِهم، وهي لا تُغني منَ اللّه شيئًا[4].

بيانُ تحقيرِ رُتبةِ الأولياءِ والنَّاصِرين من غيرِ اللّه مهمَا كانتْ قرابتُهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/199.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3463.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/35.

مَعنى ﴿دُونِ﴾ وإضافتِها إلى لفْظِ الجلالةِ:

لا تُطلبُ الولايةُ والنّصرةُ ممّن لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا

دلَّ التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿دُونِ﴾ مع إضافتِها إلى لفْظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾على أنَّ كلَّ الولاياتِ والنّصرةِ من غيرِ اللّه حقيرةٌ، لأنَّ ﴿دُونِ﴾ نقيضُ (فوقَ)، وهو ظرفٌ يَدُلُّ على التَّقصيرِ عنِ الغايةِ[1]، وَصفُوا بِهِ مَا لَيْسَ برفيعٍ[2]، فَقَالُوا رجلٌ دُونٌ وثوبٌ دُونٌ، وهَذَا دُونَك في التَّحْقيرِ، ويُقالُ: دُونَك زَيْدٌ في المنْزِلَةِ والقُرْبِ[3]، فالمادّةُ تدورُ حولَ الرّفعةِ وعدمِ الرّفعةِ، وفي هذا ذمٌّ لكلِّ وَلايةٍ ونُصرةٍ من دونِ اللّه.

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿وَلِيّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾:

بيانُ عجْزِ كلِّ وليٍّ ونصيرٍ من دونِ اللّه على العُمومِ

في تنكيرِ ﴿وَلِيّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾ وتنوينِهما دليلٌ على العمومِ والتّحقيرِ، فكلُّ وَلِيٍّ ونصيرٍ جليلًا كان أو حقيرًا مهما كان وفي أيِّ زمانٍ كان اتُّخذ من دونِ اللّه ﷻ لا تَكْمُلُ وَلايتُه ونُصْرَتُه لِمَنْ والاه ونصَرَه.

نُكتةُ تقديمِ الوليِّ على النَّصيرِ: ﴿وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

قُدِّمَ الوليُّ على النَّصيرِ لأمرَيْن اثنيْن:

قُربُ الوليِّ وسُهولةُ حالِه في الشّفاعةِ والقيامِ بالأمورِ

الأوَّل: القربُ، فالوليُّ أقربُ منَ النَّصيرِ، إذْ به تقومُ الأمورُ والأحوالُ، ثمّ يكونُ النَّصيرُ في أحوالِ النُّصرةِ والتَّأييدِ[4].

الثّاني: السُّهولةُ، "لأنَّ الرّكنَ الشَّديدَ الّذي يستندُ إليه، إمّا وليٌّ يَشفعُ أو ناصرٌ يَدفعُ، والأوَّلُ أسهلُ الطَّريقيْن، فلذلكَ قُدّمَ الوليُّ على النَّصيرِ[5].

بلاغةُ العطْفِ وتَكرارِ النَّفْيِ مع ﴿نَصِيرٍ﴾:

التّأكيدُ على نفيِ أوهامِ الأفهامِ أن يكون هناك نصيرٌ من دونِ الله

عُطفَ النَّصيرُ على الوليّ في قولِه: ﴿وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، للاحتراسِ،

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).
(2) ابن سيده، المخصَّص: 4/234.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (دون).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/489.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/380.

فالوليُّ "قد يضعُفُ عن النُصرةِ، والنَّصيرُ قد يكونُ أجْنبيًّا منَ المنصور[1]، فلحصولِ التَّكاملِ بينَ وَلايةِ الوليّ ونُصرةِ النَّصيرِ عطفَ الواحدَ على الآخرِ "لأنَّ نفيَ الوليّ لا يقتضي نفيَ كلِّ نصيرٍ إذْ لا يكونُ لأحدٍ وليٌّ لكونِه دخيلًا في قبيلةٍ، ويكونُ أنصارُه من جيرتِه[2]، فكَمنتْ بلاغةُ الاحتراسِ في اكتمالِ المعاني، ونفْيِ أيِّ ظنٍّ يردُ على الأذهانِ في نصرةِ أحدٍ من دونِ اللّهِ تعالى.

بلاغةُ توسُّطِ (لا) بين المعطوفَيْن: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

وُسّطتْ (لا) بين المعطوفَيْن، لتأكيد النّفي، لأنّه لا يَستلزمُ نفيُ الوليّ نفيَ النّصيرِ، وهذا من باب إلهاب المشاعر، لأنَّ الغرضَ من نفيِ الوَلاية هنا التَّعريضُ بمَنِ استغفرَ للمُشركين ولو كانوا أُولي قُربى.

لتأكيد نفي النّصرة، وإلهابِ المشاعر

دلالةُ الجمْع بين الوليّ والنَّصير: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

جمعَ القرآن الكريم الوَلايةَ والنُّصْرَةَ لقَطْع الأطماع في الانتفاع بالوَلايةِ والنُّصرةِ من غيرِ اللّه، لأنّه مَنْ علمَ أنّه لا وليَّ له يَحميه، ولا نَصيرَ يدفعُ عنه إذا ارتكبَ شيئًا كان أبعدَ عن ارتكابِه.

لا وَلايةَ ولا نُصرةَ إلا من عندِ الله وبإذنه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الوليُّ) و(المولى) و(النَّصيرُ):

المَوْلى: هُوَ السَّيِّدُ، والحليفُ، وَابْنُ العمِّ، وَالأَوْلَى بالشَّيْء، والصَّاحِبُ المعين.

والمعنَى في حق اللّه: المُعين الذي تركن إليه وتعتمدُ عليه وتَحتمِي به عندَ الشّدّةِ والرَّخاءِ، وفي السّرّاءِ والضّرّاءَ[3].

والوَليُّ في أسماء اللّه تعالى خاصٌّ بالمؤمنين، فاللّه وليُّ المؤمنين؛ أَي: مُعينُهم، وَالمُؤمن وليُّ اللّه؛ أَي: المُعانُ بنصْرِ اللّه ﷻ[4] كقوله

الوَليُّ خاصٌّ بالمؤمنين، والمَوْلى عامٌّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/235.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/695.
(3) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (ولي).
(4) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 284.

تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257]، أمّا المَولَى فيُطلقُ على المعنَى الخاصِّ بالمؤمنين كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمَّد ﷺ: 11]، ويُطلقُ أيضا بالمعنَى العامِّ مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: 30].

ولا تعارُضَ بين الآيتَيْن الكريمتَيْن، إذ معنَى كونِه مولَى الكافرين أيْ: مالكُهم والمتصرِّفُ فيهم بما شاء، ومعنَى كونِه مولَى المؤمنين دونَ الكافرين: أيْ وَلايةَ محبَّةٍ وتوفيقٍ[1].

أمَّا الفرقُ بين الوَليِّ والنَّصير، فإنَّ الوَلايةَ تكونُ بإخلاصِ المودَّةِ، والنُّصْرةَ تكونُ بالمعونةِ والتَّقويةِ، وقد لا تُمْكِنُ النُّصْرةُ مع حصولِ الوَلايةِ[2].

الـوَلايـةُ تـكـونُ بإخلاصِ المَودَّةِ، والنُّـصـرةُ تكونُ بالمعونة

ومنَ الفرْقِ بينَهما أيضًا أنّ الوليَّ قد يضعفُ عنِ النُّصرةِ، وأنَّ النّصيرَ قد يكونُ أجنبيًّا عنِ المنصور، وقد يكونُ من أقربائِه، فكلُّ وليٍّ نصيرٌ وليس كلُّ نَصيرٍ وليًّا، فبينهما عمومٌ وخُصوصٌ.

(1) الشِّنْقيطي، دَفْعُ إيهامِ الاضْطِرابِ، ص: 89.
(2) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 189.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»